كلمات في مئويّة «المشرق»

تأخذني الرعشة وتتملّكني الاستحالة عندما آخذ القلم لأكتب هذا التقديم في بداية مئويّة المشرق. قليلة جدًّا مجلّات الأيّام الخوالي، الآتية من القرن التاسع عشر، الصامدة في وجه الزمن العسير، المجتازة في هذا الشرق عتبة المئة من الأعوام. إنّه تحدّي الاستمراريّة وتحدّي الكتابة. بدأت المشرق وقد أُسند أمر تحريرها وإصدارها إلى الأب لويس شيخو اليسوعيّ، فارتبطت مسيرتها بشخصه مدّة طويلة، كما ارتبطت الكثيرات من المجلّات الأُخريات بأصحابها وغابت معهم. إلّا أنّ المشرق استمرّت مع رهبان وأدباء آخرين، كونها أثبتت ذاتها مِساحة علم وإيمان وفكر، ومنبر نهضةٍ وبناء. توقّفت عن الصدور مدى عشرين عامًا وصمتت في سنوات الحروب اللبنانيّة، إلّا أنّها عادت ثمرة إرادةٍ هادئة، لتشارك في حمل قضايا الدين والدنيا.

* * *

مئة عام من عمر المشرق هي تاريخ طويل شهد عزّ الدولة العثمانيّة فأفولَها واندثارَها إثر الحرب العالميّة الأولى، ثمّ دخول المنطقة دوّامة الحلّ الاستعماريّ الذي تلاشى مع الحرب العالميّة الثانية، تاركًا وراءه قضيّة فلسطين وشعبها. هذه المجلّة – على ما يوضحه مقال مديرها في ما قدّمته إلى الثقافة العربيّة – كانت ركنًا ولو متواضعًا، من أركان النهضة العربيّة التي أرادت للإنسان في هذا المشرق أن يستجمع ذاته ويدرك قواه فيحقّق آماله في صنع تاريخه وبناء مستقبله. إلّا أنّ تلك النهضة، وإن عمّقت تفكيرها في موضوعات اللغة والأدب والشعر والثقافة والحرّيّة ودور العقل، فإنّها لم تستطع أن تتحوّل إلى واقع سياسيّ اقتصاديّ اجتماعيّ موضوعيّ عبر نشوء الدول والأوطان.

* * *

مئة عام من عمر المشرق وقضايا البلاد هي موضوع نقاش وتفكير. إنّها قضيّة الهُويّة والتعدّديّة والديموقراطيّة؛ قضيّة علاقة الدولة بالمجتمع

المدنيّ؛ قضيّة موقع الثقافة (أهي كلّ شيء؟) ودورها في بناء الإنسان والمجتمع، وفي نقد الذات ضمن أُطُر الحرّيّة وعلاقة الثابت بالمتحوّل؛ قضيّة الخروج من الجهل والتعصّب والفقر. ولا شكّ في أنّ دخول الحلول العسكريّة والعنف والتطرُّف المسرحَ السياسيّ - الاجتماعيّ، جاء جوابًا، كما في الأمس، عن أزمات متلاحقة وجدت نفسها في طريق مسدود الإنسانُ فيها الضحيّة.

* * *

مئة عام من عمر المشرق كانت في خدمة المسيحيّة والكنيسة بوجه خاصّ. فالكنيسة حقّقت الكثير عبر تطوير مؤسّساتها وإعادة بناء ذاتيّتها المميّزة وإيمانها وتراثاتها. إلّا أنّ العديد من القضايا الأساسيّة ما زال ينتظر التفكير العميق في الصلاة لبلوغ الأجوبة المعقولة المقبولة. الإرشاد الرسوليّ رجاء جديد للبنان الذي أعلنه البابا يوحنّا بولس الثاني يُعيد اليوم إلى الأذهان مهمّات العمل الكنسيّ الكاثوليكيّ في لبنان ودول المشرق. إنّها قضايا التلاقي أو الوحدة الآتية بين الكنائس، التحرُّر من العقليّة «الذمّيّة» والانتماء إلى العالم العربيّ والإسهام في بناء ثقافته، تطوير الخطاب اللاهوتيّ الأصيل المرتبط بالواقع الشرقيّ والدينيّ والسياسيّ والاجتماعيّ، تحديد الموقف من العلمنة و«العَوْلَمة» (العالم بأسره صار قريةً صغيرةً بفضل وسائل الإعلام والاتّصال). ويبقى أنّ الإرشاد الرسوليّ يدعو، قبل أيّ أمر، إلى تلك النهضة الروحيّة التي هي مفتاح معالجة الوضع المسيحيّ الصعب.

* * *

هكذا، وأمام هذا الكمّ من القضايا، تستمرُّ مجلّتنا عبر مختلف كتّابها، وإسهام مجلس تحريرها المتنوّع، في حمل مشعل الفكر والإيمان. إنّه إسهام متواضع، علمًا أنّ التواضع هو علامة المشاركة والمسؤوليّة والغلبة على الأنانيّة والفرديّة. بهذه الروح تنطلق المشرق في مئويّتها الثانية: كلمة التمسُّك بالأصيل، والحوار، وتوطيد العيش معًا.

الأب سليم دكّاش اليسوعيّ

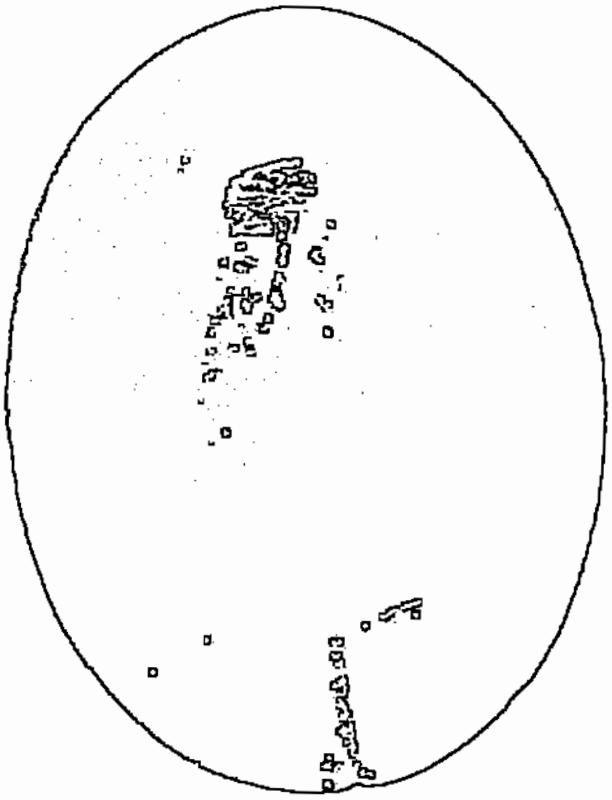

الأب لويس شيخو اليسوعيّ
(١٨٥٩ - ١٩٢٧)